

الفصل الثاني

مفاهيم اليهود للسيطرة على المنطقة العربية

كيف

تفكر

إسرائيل

المبحث الأول: مفاهيم اليكود .. جابوتنسكى.

المبحث الثاني: الأصول الفكرية .. والمبادئ
الستة.

المبحث الثالث: الأصول الفكرية .. وعملية بناء
الدولة اليهودية الكبرى.

oboeikendi.com

البحث الأول

مفاهيم اليبكود .. جابوتنسكى

تحت هذا العنوان كتب د. حامد عبد الله ربيع:

«مجموعة من الحقائق تسيطر على الإدراك الإسرائيلي، وتتغلغل فى جميع عناصر التصور المسؤول عن مستقبل الدولة اليهودية فى المنطقة، من حيث خصائص تعاملها مع المنطقة، بحيث أن هذه تكون نسيجاً متكاملأ لحقيقة النظرة الاستراتيجية البعيدة المدى، التى تتغلغل فى ذلك الإدراك.

أولاً: هو يميز فى صراعه بين مرحلتين: الأولى السابقة على الحرب، خلال هذه المرحلة التى سبق ووصفناها فى بعض الأحيان بكلمة السلام المضاد.. هى مرحلة إعداد واستباق للصدام، يقول المنظرون للعلاقات العربية الإسرائيلية: إن هذه العلاقات يسيطر عليها فكرة الحرب النائمة، ففى لحظات السلام هناك رغم ذلك حرب مستترة خفية، إنها حرب غير معلنة، ولكن هذه هى حقيقة العلاقات، إنها مرحلة الإعداد للأرض التى سوف يتعين على جيش الدفاع أن يجتازها، يجب أن يتم حرث تلك الأرض بطريقة معينة، بحيث تصير رخوة مهيأة لاتملك أى عنصر من عناصر المقاومة، ومن ثم تستطيع القوة والقدرة الإسرائيلية أن تجتازها بلا صعوبة. يجب أن تتحول إلى قطعة من الزبد يستطيع الجيش اليهودى أن يجتازها كالكسكين فلا يجد أى عائق، ويسير فى الاتجاه الذى يريده ليصير سيد الموقف، حتى لو كانت قوته ضعيفة ومحدودة.

مرحلة السلام هى إعداد للحرب.

ثانياً: هذا المفهوم الأول ليس بالجديد فى تاريخ الصراع العسكرى، لقد سبق للفكر النازى أن أبرزه وأصله، ولكن الفكر الصهيونى أكمله، وجعل منه عقيدة حقيقية، وهو أمر يفسر كيف أننا لن نستطيع أن نفهم الفكر السائد فى الإدراك الإسرائيلى إن لم نعد إلى «جابوتنسكى» وتلاميذه، نستلهم منه خصائص الفلسفة التى سادت وبلورت نظرة

الصهيونية اليمينية (1) الواقع أن مجيء ليكود (2) إلى السلطة يعبر عن انقلاب حقيقي في الإطار الفكري المتعامل مع الواقع. مما لاشك فيه أن التطور الداخلي في إسرائيل أعد لذلك منذ حرب 1973 بل يمكن القول منذ حرب عام 1967 أخرج التطور العنيف الذي كان يجب أن يحدث، وجاءت حرب 1973 ففرضت على المجتمع الإسرائيلي أن يستيقظ، وجاءت يقظته في شكل انقلاب خفي غير معلن، انتهى بوصول حزب ليكود إلى السلطة، الذي يعنينا مؤقتاً أن نؤكد عليه أن مجيء ليكود يعني وصول نظام للقيم جديد سيطر على الحياة السياسية وعلى أسلوب التعامل مع المنطقة، المفهوم الصهيوني الذي ساد خلال قرابة ثلاثين عاماً منذ إنشاء إسرائيل، ليس هو المفهوم الذي يسود القيادة الإسرائيلية اليوم، صحيح أنه أضعف من التغيير العنيف نحو نظام جديد للقيم، لكن الأمر الذي يجب أن نكون على وعى به أن ما يسود القيادة الإسرائيلية من قيم في نهاية الثمانينات ليست هي القيم التي سادت ذلك المجتمع حتى نهاية حرب الأيام الستة.

سهل هذا التطور العنيف الذي لاتزال القيادات العربية غير واعية بنتائجه ودلالاتها عدة متغيرات:

(1) إن استخدام مصطلحات «اليمين» و«اليسار» و«الديموقراطية» في إسرائيل لايعنى نفس المفهوم الغربى لهذه المصطلحات. فليست المبادئ والقيم الليبرالية هي معيار تحديد هذه الأوضاع والمواقف السياسية، بل يعد «الدين» ومدى التمسك بحرفيته في الفكرة الصهيوني هما المعيار الحقيقي؛ لذا تتخذ معظم الأحزاب العلمانية مواقعها إلى اليسار، في حين تتخذ الأحزاب الأكثر تمسكا بنظرية الأمن الإسرائيلي أوضاعها جهة اليمين.

راجع كتاب «النظام السياسي في إسرائيل» لواء أ.ح.د. فوزى محمد طایل - دار الوفاء طبعة 2 عام 1992 ص 103 وتلقى الأحزاب السياسية معونات مالية من المنظمات اليهودية في الخارج، كى تتمكن من الاستمرار في أداء دورها. ص 107 مصدر سابق.

(2) حزب ليكود أو كتلة ليكود: هو أحد أحزاب اليمين في إسرائيل، ومعنى كلمة «ليكود» تدل هذه الكلمة على فكرة «أرض إسرائيل بحدودها التوراتية»، بما فى ذلك «ضفتى نهر الأردن». وقد ظهرت هذه الكتلة قبيل انتخابات الكنيست الثامنة، فى شهر سبتمبر 1973، باسم «التكتل اليميني الإسرائيلي»، بيد أن كتلة «ليكود» وصلت إلى الحكم فى انتخابات عام 1977م بحصولها على (43 مقعداً) بعد أن كانت حصلت على (39 مقعداً) فقط عام 1973م. وتتكون كتلة «ليكود» من ثلاثة أحزاب رئيسية أهمها: «حركة الحرية» (حيروت)، التى أنشأها «مناحم بيجن»، والثانى «الحزب الحر»، والثالث فهو «القائمة الرسمية» (لاعم) ويعد موت «بن غوريون» التحق «لاعم» بكتلة ليكود.

* وفى صيف عام 1973 نشأت كتلة «ليكود» من ائتلاف «جاحال» «المركز الحر» «لاعم» لمجابهة ما أسموه «سياسة المصالحة» التى تتبناها رئيسة الوزراء «جولدا مائير».

* وقد بدأت كتلة «ليكود» منذ عام 1981 أكثر اندماجاً، بعد أن كان للأحزاب المكونة لها قدر كبير من الاستقلال الذاتى؛ «النظام السياسي في إسرائيل» لواء فوزى طایل ص 118، ص 119 مصدر سابق.

المتغير الأول: الأزمة التي كان يعيشها الفكر الصهيوني، وبصفة خاصة في تقاليد الاشتراكية الحقيقية.

المتغير الثاني: نشوة النجاح التي أعقبت الشغرة المعروفة في حرب أكتوبر والتي ضخمتها الدعاية الإسرائيلية على أنها تعبير عن الجيش الذي لا يقهر.

المتغير الثالث: الضعف القيادي، ويكفي أن نتذكر من هو الذي كان يتزعم حزب العمل: رابين قائد عسكري، صفحة حياته تحيطها الكثير من عناصر الشك، وشيمون بيريز تعود أن يكون الناجح فقط، وهو في موضع الرجل الثاني ليزكرنا (بايدن) البريطاني، الذي ما أن يدعى لأن يؤدي وظيفة الرجل الأول حتى يصيبه التلعثم ويفقد القدرة على التصرف السليم.

المتغير الرابع: بروز اليهود الشرقيين وسطوتهم، وبصفة خاصة وهم أقرب إلى جيل السابرا (*) الذي أضحى هو وحده صاحب الكلمة الأولى والنهائية، مما لاشك فيه أن هذا التغير الذي أصاب القيم القومية في التعامل الخارجي في حاجة إلى شيء من التحديد رغم ذلك، فعلياً أن نتذكر منذ البداية أن هذا التغير محدود الفاعلية، من حيث الإطار الحقيقي للتعامل.

أ - فكتلة ليكود لم تستطع أن تنفرد بالسلطة إلا فترة قصيرة لم تصل حتى إلى عشرة أعوام، ويجب أن نعترف بأن مشاركة كتلة العمل مع حزب ليكود لابد وأن يخفف من مبالغات اليمين.

ب - كذلك فإن عدم وجود قيادات يقلل من احتمالات السيطرة الفكرية الكاملة وبصفة خاصة أن شارون الذي يمسك العصا من وسطها، ما بين القيادة السياسية والقيادة العسكرية رجل أناني لا يؤمن إلا بنفسه.

ج - إن مفاهيم جابوتنسكي⁽¹⁾ وقد قام مناخم بيجن بإحيائها، وبغض النظر عن

(*) جيل السابرا أو جيل (الصابر) ويطلق عليهم بالعبرية (تصابريم) وهي جمع، وتعني شامالين الشوكي، وتستخدم الكلمة للدلالة على اليهود الذين ولدوا في فلسطين وتربوا في إسرائيل. راجع كتاب النظام السياسي في إسرائيل - ص 36 مصدر سابق.

(1) جابوتنسكي اسمه «زيف جابوتنسكي» أما اسمه الأصلي «فلا ديمير جابوتنسكي - Vladimir Jabotinsky» وهو الذي أنشأ المنظمة العسكرية (ها إرغون تصفا لنومي). وشهرتها «إرغون» عام 1931، وتولى (بيجن) قيادتها عام 1943. بعد أن بلغت قرابة 3000 مقاتل حرب عصابات. وكان من أشهر قادتها (إسحاق شامير) وقد قامت بالعديد من أعمال العنف والقتل والوحشية في فلسطين (منها مذبحه دير ياسين) فضلاً عن أعمال الاغتيال. وهو الذي كان يدعو إلى نبذ فكرة التدرج والتوفيق، التي كان يدعو إليها الاشتراكيون في الحركة الصهيونية، والتوجه إلى الكفاح المسلح =

قدرة جابوتنسكى الأيديولوجية، فإن أفكاره تعود إلى فترة سابقة على إنشاء إسرائيل، ولذلك فإن أفكاره لاتصلح ولا تتوافق مع الحقيقة الدولية التى تعيشها إسرائيل فى نهاية القرن العشرين.

سوف نعود فيما بعد لتحديد خصائص فكر جابوتنسكى، وكيف ساهمت فى بناء نظام جديد للقيم السائدة فى المجتمع، وبصفة خاصة فى القيادة الإسرائيلية، ولكننا نحن بصدد تحديد العناصر العامة التى تسود الإدراك القياىى الإسرائيلي، يجب علينا أن نبرز معالم النظام الجديد للقيم، التى تسود هذا الإدراك والتى تربط القوى الثلاث المتحكمة فى التوليفة السياسية التى تحكم إسرائيل:

- 1 - أول هذه القيم: هى حق إسرائيل فى الهيمنة على منطقة الشرق الأوسط.
 - 2 - القيمة الثانية هو أن إسرائيل دولة شرق أوسطية وهى كذلك ليس فقط بسياستها الحالية بل وبتاريخها الطويل منذ أكثر من عشرين قرناً.
 - 3 - القيمة الثالثة وهو سيادة المفاهيم الدينية. فى أى نظام للأخلاقيات السياسية يسود المجتمع الإسرائيلى المفاهيم الدينية، بمعنى التقاليد اليهودية الأصيلة التى أسسها الآباء الأوائل بكل ما تتضمنه من تناقضات أو مخالفات للعالم المعاصر.
- المتغير الدينى، يصير من ثم أحد المحاور الأساسية للتعامل السياسى.
- 4 - إنشاء إسرائيل الكبرى بإقليمها المتسع، وكمها الديموجرافى، ووظيفتها القيادية والحضارية بصفتها الهدف النهائى للسياسة القومية اليهودية (1).

ثالثاً: إن إسرائيل ليست مجرد دولة تَجَمَّع يهود العالم، إنها تعبير عن الوظيفة الحضارية التى يجب أن تؤديها فى عالم القرن الواحد والعشرين، إن المجتمع اليهودى الذى تقيمه الدولة اليهودية ليس مجرد الشعب الذى ظلم وضحى به، إنه مقدمة الحضارة التى أن لها أن تقود الإنسانية لتهدى وتوصل نظرة جديدة فى الحياة والوجود. وهذا وحده يعطى إسرائيل حقوقاً معينة ويفسر ليس فقط حقها فى السيادة على المنطقة، بل وضعها فى أن تتعامل مع الولايات المتحدة على قدم المساواة من جانب، وأن تنظر إلى من يحيط

= لتحقيق الأهداف القومية لليهود، بالحديد والنار، الأمر الذى بلغ حد العدا بين «جابوتنسكى» و«بيغن» من جانب و«بن غوريون» من جانب آخر. وهو عدا ورثه كتلة ليكود، حزب العمل.
راجع إن ردت التوسع كتاب «النظام السياسى فى إسرائيل» لواء أ.ح.د. فوزى محمد طایل - مطبعة دار الوفاء ص 119، ص 120 مصدر سابق.

(1) النظام السياسى فى إسرائيل لواء أ.ح.د. فوزى محمد طایل، دار الوفاء المنصورة طبعة 2 عام 1992.

بها من شعوب على أنها تجمعات متخلفة، هي وحدها التي سوف توظفهم في أداء تلك الوظيفة التي عهدت بها الإرادة الربانية إلى الشعب المختار.

جابوتنسكى ونظام القيم الجديد:

ما هي أفكار جابوتنسكى؟ والتي أعاد إحياءها حزب (ليكود) لتدخل في تشكيل مفهوم الأمن القومي الإسرائيلي، ويخضع لها الإدراك القيادي بما في ذلك القيادة العسكرية، والتي يجب أن تتعامل معها خلال الأعوام القادمة؟

الدراسة الحقيقية لتطور القيم وتأثيره في صنع السياسة الإسرائيلية، لا وجود لها باللغة العربية، مراكز الأبحاث التي بدأت تنتشر في الفترة الأخيرة في العالم العربي، تتميز بصفتين: الأولى سطحية رجالها، ويكفى أن نتذكر أنه يكاد يستحيل أن نجد متخصصا في التحليل السياسي يعرف اللغة العبرية، وهو يعيش في تحليلاته على فقاعات منقولة من الإعلام الغربي اليومي، وواضح أنه بهذا الشكل ينتهي بتسطيح المشاكل وعدم القدرة على الغوص في خلفيات الحقائق.

والصفة الثانية: إن هذه المراكز لاتعرف ما يسمى بالدراسات الحركية إنها تصف القائم، بل وهي تصف ذلك القائم الذي سيطر على الوضع في المنطقة منذ عدة أعوام دون أن تدرك أن هناك متغيرات جديدة وتفاعلات أكثر عمقا.

مما نتصور أحد أهداف (غزو بيروت) هو تحطيم الإطار العلمي الذي كانت القيادات الفكرية الفلسطينية قد استطاعت أن تؤسسها رغم كل عيوبه، ومنذ ذلك التاريخ لم يوجد حتى اليوم جهاز آخر في أى بقعة من بقاع العالم العربي، قادر على أن يحل محله في خارج لبنان، لا يوجد بخصوص هذا الموضوع سوى الترهل.

التغير في القيم السائدة في المجتمع الإسرائيلي، وبصفة خاصة من حيث علاقة ونظرة قيادة ذلك المجتمع، بعالم الشرق الأوسط خطير وعميق، والدراسات بخصوصه عديدة بجميع اللغات، عدا اللغة العربية. المكان لايسمح إلا أن نطرح الموضوع في أبعاده العامة وبصفة خاصة من حيث علاقته بمفهوم الأمن القومي من جانب، ومن حيث موضع المتغير الدينى في التعامل مع منطقة الشرق الأوسط من جانب آخر.

هذه المفاهيم جاءت مع ليكود، وكانت بدايتها في خلاف نظرى حول الثورة المعروفة في التاريخ اليهودى القديم باسم ثورة «باركوفيا»، والتي انطلقت ضد الرومان، وانتهت بتحطيم المعبد الثانى عام 70 قبل الميلاد، فالعالم المشهور «هاركابى» نظر إلى هذه الثورة على أنها تعبير عن خطأ في فهم المثالية في تطبيق السياسة الخارجية، وتصدى له ممثل الفكر الليكودى، العالم «الداد» ليؤكد صواب التطرف المنسوب إلى القائد اليهودى بغض

النظر عن هذا الخلاف النظرى، فإن «هاركابى» أراد أن يلفت النظر إلى مخاطر الفلسفة المثالية وتأثرها بال نماذج التاريخية.

و«الداد» راح يدافع عن صلابة مفاهيم جابوتنسكى وصواب النظرة الجديدة فى التعامل مع سياسة إسرائيل الخارجية.

هذه النظرة الجديدة أدت إلى بروز مجموعة من المبادئ، كان لها أثر واضح فى إعادة تشكيل مفهوم سياسة إسرائيل، هذه المبادئ والتي تقف خلفها جميع القوى السياسية الحاكمة، يجب أن تكون واضحة فى الذهن، ورغم أنها تحتوى مجموعة التناقضات، البعض من هذه المبادئ تحيط به عناصر للغموض، ولكنه لايجوز أن يخذعنا ذلك، وإذا كانت مراكز صنع القرار الدولى تعلم بها، فقد أن الأوان لأن يعلم بحقيقتها واحتمالاتها كل مواطن عربى، ولعل خطورة هذه القناعات، وهى التى تفسر التصريح الذى فوجئ به منذ عدة أيام رئيس الحكومة الإسرائيلية، عندما طالب «بيكر» القيادة اليهودية بأن تتخلى عن فكرة إنشاء إسرائيل الكبرى، كل من يعرف حقيقة بواطن الأمور والإدراك الإسرائيلى القيادى، يعلم بأن العناصر المسؤولة فى داخل الدولة اليهودية تؤمن بأن واجبها التاريخى أن تحقق النبوءة، وأن تحيل الخيال إلى واقع، وأن تحقق الهدف النهائى وهو الدولة اليهودية العظمى، التى تتلقف الرسالة الحضارية التى عهدت بها العناية الإلهية إليها، والتى سوف تنتقل إليها فى خط مستمر من القيادة الروحية يبدأ بأثينا ويتلوه بروما وعبر سلسلة متتالية من الماضى، سوف ينتهى فى القدس.

ولكن ما بالننا نتقدم بالنتائج.

عنا صر الإدراك الإسرائيلى:

هذا الإدراك الذى تلقفه «مناحيم بيجن» من «جابوتنسكى»، والذى تمت إعادة تطويعه تدريجيا والذى تفاعلت فى داخله مفاهيم «شارون»، ومن خلفه المؤسسة العسكرية، قاد إلى وضع الأصول العامة للإدراك الإسرائيلى، فلنحدد عناصره قبل أن نطرح موضوع الإسلام فى هذا الإدراك:

أ - أول عنا صر هذا الإدراك أن العالم العربى ليس إلا تكويننا مصطنعا خلقته الإمبريالية العالمية، الأمة العربية لغو لا وجود له، لا يوجد شيء اسمه العالم العربى. تاريخ هذه المنطقة هو فقط قصة الاعتداءات على الأقليات المسلمة وغير المسلمة، أحد مسالك تفجير المنطقة هو التوترات الدينية، وبصفة خاصة بين الشيعة والسنة، منطقة الشرق الأوسط هى أرض الأقليات الدينية وليست أرض الأمة العربية، التى هى وهم خلقه الإدراك الخاطى من الجانب الأوروبى.

ب - هذا الواقع يُسهل على إسرائيل مشكلة التسرب في داخل منطقة الشرق الأوسط، معزول السياسة الإسرائيلية أنها يجب أن توطد علاقاتها مع الشيعة والدروز والطائفة الصارونية، لأن هذه القوى تقع في دائرة الضواحي بالنسبة لسنّة وهي من ثم قادرة على أن تخلق نوعاً من الضغط الجانبي على القدرة السنية.

ج - الزعم بأن إيران ضد إسرائيل ليس إلا لغة غوغائية أن الأوان لإخضاعها لنظرة نقدية حقيقية. العلاقات بين إيران واليهود علاقات تاريخية، والصداقة بين الشعبين رغم أنها اجتازت مراحل متباينة إلا أنها تاريخية وقديمة، هنا ترابط حضارى بين الشعبين: الفارسي واليهودي. يجب أن يعود إلى الحياة، وحتى لو من منطلقات جديدة وبمنطق جديد (وفق منظور هذا الإدراك).

د - خلف هذه النظرية هناك قناعة في القيادة الإسرائيلية بأن العالم العربي على استعداد لأن يتقبل الوجود الإسرائيلي في المنطقة، العالم العربي لم يكره اليهود، ولم يعرف مفهوم التعصب العنصرى في مواجهة الشعب اليهودى. هذا المفهوم صُدّر له من خلال مفاهيم التعامل السياسى مع القرن العشرين، وهو اليوم في حاجة لأن يتعلم كيف يستقبل الوجود الإسرائيلي، وبصفة خاصة قيادة الوجود الإسرائيلي للمنطقة.

هـ - وهكذا برز مفهوم جديد في السياسة الخارجية الإسرائيلية ليعلن عن أهدافه بصراحة، وبلا حياء، وهو استخدام القوة العسكرية كأداة لتحقيق أهداف سياسية.

إن مفاهيم «كلاوزيفتتش» يجب أن يعاد صياغتها، ومع مجيء «مناحم بيجن» وبصفة خاصة على يد «شارون» برز واضحاً مفهوم أساسى وهو مفهوم مخالف كلية لمفهوم حزب العمل، وأساسه ليس احترام الوضع القائم، أو التظاهر باحترام ذلك الوضع القائم وإنما تغيير هذا الوضع ولو باستخدام الجيش كأداة تهديد، أو أداة تحطيم، ومن ثم برزت ملامح معينة بعضها تحقق وبعضها لا يزال لم يُقدر له التحقق، ولكن القيادة الإسرائيلية تعمل بدأب على تحقيقه:

أولاً: إجراء اتفاقية سلام مع مصر، وفتح حدود التعامل بين الدولة العبرية ودولة شمال وادى النيل.

ثانياً: إنشاء دولة درزية في سوريا ولبنان.

ثالثاً: تحويل العراق (1) إلى دولة فيدرالية متعددة الأجناس.

رابعاً: التدخل العسكرى في لبنان وتحويله إلى مجتمع مفتت، يفقد فيه أى مواطن

(1) وقد تم ذلك نتيجة حرب الخليج الثانية، وفقد العراق استقلاله وقدراته وما نحن فى انتظار تدخل

أمريكى إنجليزى مسلح فى العراق لاستكمال ما بدؤوه فى حرب الخليج (فبراير 1998).

الشعور بالانتماء إلى أى سلطة سياسية تعرف كيف تحميه.

خامساً: إنشاء دولة مارونية فى لبنان توقع على صك مماثل لاتفاقية «كامب ديفيد».

و - كذلك فإن العلاقة بين الولايات المتحدة وإسرائيل ليس محورها حاجة إسرائيل إلى المساعدة والمساندة من جانب، وحاجة الولايات المتحدة لخلق أداتها فى المنطقة من جانب آخر. العلاقة أبعد من ذلك وأكثر عمقا إن هناك تحالفاً بين دولتين على قدم المساواة:

أولاً: بحيث إن علاقة تل أبيب بواشنطن يجب أن تسوده النديّة، وهكذا كان التطور نحو التعاون الاستراتيجى، ثم التحالف الحقيقى بين الدولتين الذى تم فى إطار هذه القناعة، وهو أمر يبدو واضحاً عندما كان لا يزال مناحم بيجن يجلس فى مقعد القيادة فى الجانب الإسرائيلى، وعندما كان «هيج» لا يزال مسؤولاً عن السياسة الخارجية الأمريكية من جانب آخر، وقد ترتبت على ذلك نتائج البعض منها لا يستطيع العقل الواعى أن يتصوره، وهو تأكيد ودليل على البراعة الإسرائيلىة، وكيف أنها استطاعت أن تخلق لها الوظيفة، التى تحيل الضعف إلى قوة.

ورغم أن المكان لم يحن بعد لأن نعلن عن ذلك، إلا أننا نستطيع أن نلمح به، والذى يدور حول أن يعهد إلى تل أبيب باستخدام القنبلة النووية التكتيكية لإيقاف التدفق السوفيتى لو قُدر لطف وأرسو أن يحاول اكتساح وسط وغرب أوروبا، سوف نعود لذلك فى موضعه، ولكن لتذكر فقط مؤقتاً كيف أن هذا والذى نعتقد أنه خلف التحول الواضح فى الابتعاد، ولو قليلاً عن إسرائيل فى الجانب الأوروبى وبصفه خاصة فرنسا، كان يجب أن يكون موضع الدراسة العميقة الجادة من الجانب العربى لخلق العداوة، أو على الأقل عدم الثقة من الجانب الأوروبى فى مواجهة إسرائيل.

ولكن لمن نتحدث وهذه القيادات العربية المترهلة لاتزال تسيطر على مقدراتنا، سواء فى جامعة الدول العربية ومنظماتها، أو فى داخل الدول العربية ومؤسساتها؟

عودة إلى نقطة البداية فإن هذه النظرة إلى واشنطن كان لا بد وأن تتبلور حول نقطتين أساسيتين:

أولاً: العلاقة بين إسرائيل والولايات المتحدة ليست مجرد علاقة بين دولة صغيرة وإمبراطورية كبرى، إنَّها على العكس من ذلك علاقة بين مجتمع يهودى له وظيفة عالمية يتواجد جزء منه فى الولايات المتحدة، وهو هذا الجزء هو السبب فى الازدهار والتقدم الذى حققته تلك الولايات المتحدة، والأداة النظامية لذلك المجتمع اليهودى، التى تحمل على كتفيها مسؤولية تحقيق تلك الرسالة.

ثانياً: إن المساعدة الأمريكية لايجوز أن تستخدم كسلاح للضغط على إسرائيل، إنها نفقات لحماية التواجد الأمريكي في المنطقة، بل ويجب أن تُدرج في باب النفقات العسكرية وليس المساعدات أو المعونات، وكما أن الشعب اليهودي هو الذى مكن المجتمع الأمريكى من الازدهار والتفوق، فإن إسرائيل هى التى سوف تمكن السياسة الأمريكية من التوغل والاستقرار فى منطقة الشرق الأوسط، بل وفى جميع أجزاء البحر المتوسط.

لقد وصلت هذه القناعات إلى نفس القيادة الأمريكية العسكرية التى عجزت فى تخطيطها للتعامل الدولى، ولكن هذا موضوع آخر سوف نعود له فى موعد آخر بالتفصيل الكافى، والذى خلاصته بإيجاز مؤقتاً أنه فى حالة، اعتداء مكثف من جانب حلف وارسو على أوروبا، فإن العسكرية الأمريكية سوف تستند فى تعاملها مع حوض البحر الأبيض المتوسط إلى عنصرين أساسيين:

الأول: وسبق وذكرناه وهو إيقاف التدفق السوفيتى فى وسط أوروبا، وبصفة خاصة فى ألمانيا بضرية بالقنابل النووية التكتيكية التى هى وحدها تسمح بتحقيق ذلك الهدف وسوف يعهد إلى الطيران الإسرائيلى بالقيام بتلك الوظيفة.

الثانى: أن القوات الأمريكية لمنازلة الغزو السوفيتى سوف تعهد إلى الطيران الإسرائيلى القيام بتلك الوظيفة. لن تعيد قصة الحرب العالمية الثانية فى أوروبا ولكنها سوف تجتاح شمال إفريقيا، ابتداء من المغرب حتى وادى النيل.

ز - كذلك فإن النظرة إلى الضفة يجب أن تنبع من تلاقى الاعتبارات الأمنية بالحقوق التاريخية، هذه المنطقة جزء من أرض إسرائيل الكبرى، وليس هناك موضع للنقاش بخصوص انتمائها. تنظيم وضع العرب فى داخل الأرض التى ليست محتلة، ولكنها محررة مقبول ولكن ليس أكثر من ذلك، إنه نفس المنطق الذى سبق وأن استخدمته السلطات السوفيتية وهى تحاول إنشاء دولة يهودية فى الاتحاد السوفيتى الأرض الإسرائيلىة ولكن تنظيم مصالح أهالى تلك الأرض يمكن أن يُعبّر عن إرادة أهالى تلك الأرض التى تظل موضع الرسالة والوعد الإلهى للشعب اليهودى، منذ مجيء ليكود إلى الحكم فإن نظرتة بهذا الخصوص كانت واضحة وصريحة:

أولاً: قانون القدس عام 1980.

ثانياً: ضم منطقة الجولان فى عام 1982.

ثالثاً: خطة الاستيطان فى القطاع والتى تم تنفيذها بهدوء وبذكاء يتجه فى جوهره إلى الاستئصال المعنوى والعنصر العربى.

رابعاً: موضوع الانتخابات في الضفة والقطاع.

علينا أن نتذكر وهو ما سبق وذكرناه، نكرره مرة أخرى رغم أن الوقت لا يزال لم يحن بعد للتفصيل في عناصره. إن الهدف البعيد المدى لإسرائيل، هو أنه في لحظة معينة سوف يطرح مستقبل هذه المنطقة في استفتاء تحت إشراف المنظمات الدولية، بعد أن تكون السلطات الإسرائيلية قد وثقت من أن النتيجة سوف تكون لصالحها بمعنى أن أغلبية من يصوت من أهالي المنطقة سوف يطالب بالانضواء تحت السيادة الإسرائيلية أيضاً، هذه الناحية سوف نعرض لها في موقعها بالتفصيل، وسوف نترك بخصوصها الوثائق تتحدث، وبصفة خاصة التقرير الذي صدر عن مركز يافا للدراسات الاستراتيجية بعنوان «الضفة الغربية وغزة منذ عدة أسابيع».

ولكن بقيت أهم نتائج هذا التطور من جانب النظرة إلى إسرائيل، على أنها دولة شرق أوسطية، ومن جانب آخر القناعة بأن الدين هو عنصر أساسي في إطار التعامل مع منطقة الشرق الأوسط، كلاهما يكمل أحدهما الآخر، ولكن الذي يعيننا مؤقتاً هو عنصر الدين الإسلامي كمحور للتعامل بين القيادة الإسرائيلية والعالم العربي في صراعه الحالي والمستقبلي.

الإسلام والصراع العربي الإسرائيلي:

يرتبط بعملية التمزيب الداخلي، والذاتي استخدام الإسلام كورقة فاعلة في الإرباك المحلي، وتعميق التناقضات الفكرية والمذهبية، والواقع أن هذا يرتبط بتلك القناعة الصهيونية بأن الدين هو متغير أساسي في الوجود السياسي، وفي الحركة المرتبطة بذلك الوجود سواء من حيث التعامل الذاتي أو الصراع الدولي.

على أن هذه الناحية في حاجة إلى الكثير من الدقة في التحليل والمعاناة الفكرية فنبداً بمتابعة تاريخ التعامل الصهيوني مع هذه الحقيقة الإسلامية:

أ- في بداية الحركة الصهيونية كانت أحد أدوات التعامل بقصد تدعيم القناعة بالدعوى الصهيونية، هي عملية الإغراء التي توجهت إلى القيادة العثمانية (1) في القسطنطينية. ورغم أن الوثائق التي نُشرت أخيراً لا تسمح بعد بأن نقول كلمة نهائية إلا أنه واضح أنه عند عناصر معينة لا يمكن الشك في الدلالة التاريخية:

(1) الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، أ.د. عبد العزيز الشناوي مكتبة الأنجلو المصرية كتاب الطريق إلى بيت المقدس ج 2، د. جمال عبد الهادي مسعود. طبعة الوفاء، المنصورة: الدولة العثمانية، جزءان، نفس المؤلف دار النشر.

الأولى: إن القيادات الإسلامية في عاصمة الخلافة العثمانية لم تسمح بأن تحيد ولو لسنتيمتر واحد عن القناعة برفض كل مطالب الصهيونية مهما حدث من إغراءات، بل إن الوثائق تحدثنا عن بعض من قبض مقدما ورفض الانصياع مؤخراً، كانت الإمبراطورية العثمانية صخرة ثابتة.

الثاني: إن التوافق أو الإغراء نجح في بعض القيادات الإسلامية المحلية في أرض فلسطين، ومن منطلق آخر إلى جوار المنطلق الديني، حيث لعبت الأناثية وضيق النظر دوراً هاماً وأساسياً.

الثالث: إن جميع القوى الدولية ورغم نظام الامتيازات الذي فتح باباً واسعاً للتحايل لصالح الهجرة اليهودية للمنطقة، عملت حساباً للإرادة العثمانية بما في ذلك نفس السلطات الروسية.

ب - في مرحلة لاحقة وبصفة خاصة عقب أن برزت القوة العربية في النطاق الإقليمي، بدأ الغزل يتجه إلى القيادات العربية من منطلق مفهوم القومية العربية، محور الغزل خلال هذه المرحلة كان أساسه أن اليهودية، قومية قادرة على أن تساند تطلعات المنطقة إلى الاستقلال عن الإمبراطورية العثمانية، التي خانت وعودها مع تلك القيادات. العروبة هي لغة التعامل، وكانت منطلقاً للتحالف، بل والتصدي في حلف واحد ضد الاستعمار بمختلف صورته، وسوف يتسع هذا التصور، وسوف تتبلور هذه اللغة عقب الحرب العالمية الأولى لتتجه أيضاً إلى الاستعمار البريطاني، وقسمة النجس في هذه المرحلة بدأت عندما استطاعت القيادة الصهيونية أن تحصل على وعاء من بطرس غالي، وزير الخارجية الصهيوني في ذلك الوقت، بإنشاء دولة إسرائيلية في منطقة العريش، ولم يمنع ذلك المشروع من التحقق إلا التصدي البريطاني، الذي أنهى الموضوع برمته بكلمة من لندن. هل مقتل بطرس غالي ارتبط أيضاً بهذه الواقعة؟ سؤال لم يجب عليه بعد المؤرخون.

ج - جاءت مرحلة لاحقة استغرقت قرابة عشرين عاماً، استطاعت خلالها الدعاية الصهيونية أن تقيم حائطاً فكرياً بين المشكلة الفلسطينية والعالم العربي. إذا كانت أرض فلسطين ترفض التواجد الصهيوني المكثف، فلم يكن ذلك إلا نتيجة التناقض الطبيعي بين مصالح أهل تلك المنطقة الذين يريدون أن يظلوا في حالة التخلف، والمجتمع القادم الذي يحمل الحضارة والنبوغ والتقدم خلال هذه المرحلة، والتي تمتد حتى نهاية الحرب العالمية الثانية نلاحظ ويجب أن نعترف بمسؤولية القيادات العربية وبصفة خاصة في مصر، لو أن الطبقة المثقفة في مصر فهمت واجهتها الحقيقية وتصدت لهذا التطور لما كانت إسرائيل قد أنشئت عقب الحرب العالمية الثانية. بل إن المتتبع لمناقشات مجلس الوزراء المصري في نفس الفترة التي دارت فيها جولة الحرب العربية الإسرائيلية، والتي سُميت في الفقه اليهودي بأنها حرب التحرير لا يستطيع أن يمنع نفسه من التساؤل:

أين كانت هذه القيادات؟ أين كانت الطبقات المثقفة لتبني الطريق أمام المسؤولين؟ ولكن لماذا تساءل هل تغير الموقف حالياً؟

د - خلال جميع هذه الفترات الثلاث، نلاحظ أن الفقه الصهيونى، كان يجعل منطلقه الثابت هو تشويه التراث الإسلامى والصورة العربية.

ونلاحظ بهذا الخصوص وبإيجاز شديد أن أعمدة الدعاية الصهيونية التى كانت تتمركز أولاً فى سويسرا ثم انتقلت قبل الحرب العالمية الثانية مباشرة إلى نيويورك جعلت مساراتها ثلاثة:

أولاً: إن الترابط بين التراث اليهودى والتراث الكاثوليكي أقوى من أى تهمة يو صف بها الشعب اليهودى، وبأنه مسؤول عن دم المسيح، فالمصادر واحدة والقناعات الأساسية واحدة والعلاقة بين الدينين هى علاقة توالد وليست علاقة تعارض.

ثانياً: أنه بقدر هذا الترابط فهناك صدام بين الدين الإسلامى من جانب، وكلا الديانتين اليهودية والكاثوليكية من جانب آخر، وأن الأول وهو دين فطرى لا يعرف المثالية ولا يتحدث إلا بلغة الدم والقهر.

ثالثاً: هذا الدين الإسلامى رغم ذلك لم يستطع أن يؤثر فى العالم العربى، الذى لا يصلح لأن يرتفع إلى مستوى الجماعات المتقدمة. إنه فى نهاية الطابور الطويل للوجود الإنسانى، بل إن الزنجى الأسود أكثر منه صلاحية، واستجابة لتعاليم الديانات السماوية.

هـ - خلال الفترة التى أعقبت إنشاء إسرائيل، لم يتغير المنطق الصهيونى، فى كلياته وظل كذلك حتى مجيء ليكود إلى السلطة، ولعل أحد أسباب ذلك سيادة مفاهيم حزب العمل الذى حاول بكل إمكانياته أن يقلص المتغير الدينى فى التعامل، المتبع للفقه الصهيونى خلال الفترة الأخيرة يلحظ هذا التطور الخطير والجديد:

أولاً: فهو يحاول خلق الجسور بين ما يسميه الحضارة اليهودية والتراث الإسلامى بل ولا يتردد أن يتحدث عن المصادر اليهودية للقرآن.

ثانياً: بل هو لا يقتصر على أن يطلق هذه الفكرة كبالون اختبار، بل ينقلها إلى مشروع سياسى يرتبط بالقدس، ونجح فى خلق القناعة بها، سواء لدى الرئيس «السادات» أو لدى القيادات المسؤولة فى الفاتيكان.

ثالثاً: ويكتمل ذلك بنظرته إلى منطقة الشرق الأوسط أنها عالم إسلامى، يضم أقليات متعددة ومتباينة ومختلفة عرقياً ومذهبياً، وهكذا تخفى كلمة العروبة فى هذا الإطار كليا.

إسرائيل في التصور الجديد، دولة تنتمي إلى الشرق الأوسط تاريخياً وحضارياً، بل وعنصرياً، وهى اليوم تعود إلى موقعها الطبيعي لتؤدى وظيفتها التاريخية وتصل إلى قمة النجاح عندما توفق فى توريث العالم المعروف بتضامنه مع العرب «جارودى» (1) فيصدر أحدث كتبه بعنوان «فلسطين أرض الرسالات الإلهية».

هذه جميعاً مقدمات لفهم لماذا الاهتمام بالمتغير الدينى فى التعامل الإسرائيلى مع منطقة الشرق الأوسط العربية؟ وهى تستخدم هذا السلاح كسكين بحدين تمزق من جانب القدرة العربية، وتلوى من جانب آخر القدرة غير العربية.

كيف حدث ذلك؟

سؤال فى حاجة إلى وقفة تأمل..»

(1) لقد لف اللوى الصهيونى الإعلامى الحبل حول عنق «جارودى» محاولاً أن يقصف قلمه إلى الأبد من خلال أجهزة الإعلام، ويسمع «جارودى» التهديدات باغتياه علناً من خلال أجهزة الإذاعة والتلفزيون. بل هناك برامج مخصصة لذلك بتمويل صهيونى يظهر فيها من يقول: «سأقتل جارودى... سأضربه بالرصاص؛ لأنه أمان اليهودية ويحاول تشويه صورة أجدادى!!».

* وهذه ليست المرة الأولى التى يتعرض فيها «جارودى» إلى مثل هذه العداوات الصهيونية فقد رفعت منظمة (ليكرا) دعوى على «جارودى» عام 1994، لأنه انتقد السياسة الإسرائيلية فى حرب لبنان، ورغم أن الدعوى رُفِضَتْ وحُكِّمَ على (ليكرا) بالمصاريف ففى صباح 25 أبريل من نفس السنة، سمع «جارودى» طرقات على باب منزله وفتح الباب فوجد أحد المحضرين وهو يمسك ورقة يطلب الحضور إلى المحكمة للرد على قائمة اتهامات قدمها اليهود ويطالبون بمحاكمته لما اقترفه من مهانات، وأكاذيب ضدّهم.

* وفعلاً قررت الصهيونية العالمية، إعادة محاكمة «جارودى» طبقاً للقانون (جايسو - فايونى) بتهمة معاداة السامية، وهذه جريمة تشكل جنابة وليست جنحة طبقاً لهذا القانون التعسفى.

* والآن وفى نهاية عام 1997 ومع بداية عام 1998 يُقدم «جارودى» للمحاكمة أين؟.. فى فرنسا.. التى يتشدد فيها كل مثقف بأنّها أم الديمقراطية . وبها حرية الكلمة، ولكن ليس هناك عجب، حيث نقرأ فى مذكرات «شارل ديغول» وهو يقول: «لم أكن أعرف أن فرنسا أصبحت يهودية!!».

راجع فى ذلك كله: «كتاب جارودى والإسلام وغضب الصهيونية» محمد فوزى - المركز العربى للنشر والتوزيع - ص 3 - ص 8؛ جريدة الفيجارو: 26 أبريل 1996.؛ جريدة ليبراسيون الفرنسية: 3 مايو 1996؛ جريدة الأهرام 96/6/18. * جريدة الأهرام 1996/7/23؛ جريدة الأهرام 1996/7/30؛ كتاب «الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية ومحاورات جارودى بالقاهرة - الناشر دار الغد العربى الطبعة الثانية

oboeikandi.com

البحث الثاني

الأصول الفكرية .. والمبادئ الستة
التي تسيطر على السياسة الإسرائيلية
في صياغة مفهوم الأمن القومي

تحت هذا العنوان كتب حامد ربيع:

«أخطر ما يعنيه التطور المعاصر للمجتمع العربي، والذي تدخله القناعة في حساباتها هو ما سبق وذكرناه تحت كلمة (ميلاد المجتمع الجماهيري)، يرفض أساليب التعامل المعتاد، فالتخويف أو الإرهاب لا يجدي معه شيئاً، وإن كانت له جدوى فهي مؤقتة رأينا ذلك في داخل الأرض المحتلة، التي رفعت علم الانتفاضة، والمجتمع الجماهيري يملك قيادات من نوع معين كذلك، فإن منطق التعامل الجماهيري يندفع من خلايا فكرية مختلفة.

المجتمع الجماهيري قنبلة يمكن نزع فتيلها، ولكن إن لم يتم نزع تلك الفتيل في لحظة معينة وبأسلوب معين يعنى انفجار لا تحمد عقباه، وأخطر ما يعنيه المجتمع الجماهيري أنه لو توفرت فيه عناصر معينة فإنه يعنى أيضاً ميلاد الأمة المقاتلة، وهذا هو أخطر ما يعنيه كمفهوم وكإرادة.

العالم العربي اليوم لم يقدم نموذج الأمة المقاتلة، إلا فقط منذ حرب أكتوبر في حرب أكتوبر ولدت الأمة المقاتلة على ضفاف قناة السويس، هذه الأمة المقاتلة هي التي نجحت في عبور القناة، ولكن التطور لم يكتمل، وانتقلت إرادة القتال من وادي النيل إلى وادي الفرات. ولكن مرة أخرى فإن التطور لم يكتمل، ومرة أخرى انتهت حرب عربية دون أن تخلق الأمة العربية، وأعقب ذلك الانتفاضة، وللمرة الأولى اكتملت عناصر الأمة المحاربة: إرادة قيادية، ووضوح في الرؤية، شعب يضع حياته في كفة الجهاد.. ولكن كل ذلك في حاجة إلى فيضان.

فهل تساهم إسرائيل، من حيث لا تدري في خلق العدو الحقيقي القادر على استئصالها.

فى هذا الإطار نستطيع أن نفهم حقيقة ومعنى المبادئ التى تسيطر على السياسة الإسرائيلية فى صياغة مفهوم الأمن القومى.

ستة مبادئ أساسية:

أولاً: منع التضامن العربى من أن يحدث أى نوع من أنواع التقارب بين المشرق العربى.

ثانياً: إجراء عملية تخريب واسعة النطاق فى جميع أجزاء الجسد العربى.

ثالثاً: استخدام ورقة الإسلام كأداة للإرباك وخلق التناقضات.

رابعاً: تدعيم الترابط مع الولايات المتحدة وتحويله إلى تحالف استراتيجى.

خامساً: البحث عن حلفاء جدد فى عملية المساندة الدولية⁽¹⁾.

سادساً: خلق التحالفات الإقليمية الضاغطة.

سبق أن أبرزنا المبادئ الثلاثة الأولى، وحللناها بالتفصيل الكافى، وبقي أن نتعرض للمبادئ الثلاثة الأخيرة.

كذلك سبق أن رأينا أن مفهوم التعامل مع الولايات المتحدة من جانب تل أبيب، وكذلك وبصفة عامة الوضع فى نطاق الأسرة الدولية، قد خضع لإعادة تشكيل من جانب القيادة الإسرائيلية الجديدة، وبصفة خاصة منذ مجيء «مناحم بيجن» إلى السلطة وتمركز اليمين الجديد فى السلطة، ومحور ذلك ثلاثة عناصر أساسية:

العنصر الأول: إن إسرائيل أضحت فى قناعة بأنها تؤدى فى العالم المعاصر وظيفه حضارية وقيادية تضى عليها واقعاً معيناً، وتعطيها حقوقاً معينة فى الأسرة الدولية.

العنصر الثانى: إن إسرائيل أضحت تميز فى صورة واضحة بين عملية إنشاء إسرائيل الكبرى، وحققها فى الهيمنة والسيادة على المنطقة.

الأول: هو الوعد الإلهى، ولكن.

الثانى: هو أمنها القومى أكثر اتساعاً من حيث ميدان التعامل، يكاد ينقلنا إلى المفاهيم النازية التى عبّر عنها بفكرة المجال الحيوى.

العنصر الثالث: إن كل ذلك يرتبط بأبعاد اقتصادية معينة، تدور حول حق إسرائيل، ليس فقط فى البقاء بل وفى المحافظة على مستوى الحياة للمواطن الإسرائيلى فى مجتمعه القومى.

(1) مثال ذلك تحالفات اليهود مع تركيا، أديس أبابا وأوغندا وأريتريا واليونان وحلف الاطلنطى.

فى ضوء هذه الحقائق نستطيع أن نفهم المبادئ الثلاثة الأخيرة، والتي قد تبدو بعيدة عن ميلاد المجتمع الجماهيرى العربى، ولكنها كما سوف نرى فى صميم هذا التطور الخطير فى منطقة الشرق الأوسط.

النظرة الجديدة للتعامل الدولى والإقليمى:

التطور الحقيقى الذى تعيشه العقلية الإسرائيلية، هو ذلك المرتبط بنظرية التعامل الدولى، ويبدو ذلك واضحاً عندما نلاحظ أن المفاهيم السائدة اليوم فى التصور الإسرائيلى ورغم أن صياغتها جاءت على يد (حيروت⁽¹⁾) وحلفائه، إلا أنها من جانب أقرب إلى الصهيونية الاشتراكية مما نتصور، ومن جانب آخر واستجابة للتطور الاجتماعى والاقتصادى للقوى التى يتكون منها المجتمع الإسرائيلى، ولعل هذا نموذج واضح لكيف أن السياسة الخارجية لاتعرف أيديولوجيات، وإنما تتبع فى داخلها من الواقع الحى.

النظرة التقليدية والتي سادت فى الدوائر المسؤولة الإسرائيلية، وبصفة خاصة حتى عام 1967 ظلت تمارس تأثيرها حتى مجيء ليكود إلى الحكم عام 1977. انطلقت - وبغض النظر عن الجزئيات - من أربعة مفاهيم كل منها يكمل الآخر:

أولاً: مفهوم الأمن القومى يمثل الحد الأدنى للحماية الذاتية، وهو مفهوم مستقل عن السياسة الخارجية، يرتبط فقط بعلاقة إسرائيل بدول الجوار الجغرافى.

ثانياً: مفهوم آخر أساسه أن السياسة الإسرائيلية وجوهرها هو إقامة حائط يحيط بها، أنها مجتمع الجيتو فى منطقة الشرق الأوسط، وقد أضحي حقيقة سياسية، هذا الحائط ليس فقط للحماية السياسية، بل وكذلك لحماية النقاء العرقى.

ثالثاً: التعامل مع العالم يجب أن يكون حذراً، هذا العالم بأجمعه هو الذى كره اليهود، وهو الذى سعى إلى استئصاله، وهو لا يزال يكره اليهود، لأن هذا العالم لم يتغير ولم تتغير نظرتهم إلى إسرائيل، سوى أن يهود إسرائيل يصارعون اليوم مجتمعاً وهو المجتمع العربى أيضاً بدوره موضع الكراهية مع الأسرة الدولية.

رابعاً: على إسرائيل وعلى قيادتها السياسية أن تتجنب أى تورط.

التورط هو قيود تمنع الحركة وقد تقود إلى نتائج لن تستطيع إسرائيل مهما بلغت من الذكاء أن تتخلص منها فى المستقبل.

(1) حزب (حيروت) هو العمود الفقرى لكتلة ليكود، وحزب (حيروت) - الذى أنشأه بيجن عام 1948 - يُعد وريث حزب «الإصلاحيين» الذى أنشأه «زعيف جابوتنسكى» عام 1921م. والذى يدعو إلى نبذ فكرة التدرج والتوفيق التى كان يدعو إليها الاشتراكيون فى الحركة الصهيونية؛ «النظام السياسى فى إسرائيل» لواء أ.ح.د. فوزى طایل ص 119 مصدر سابق.

عقب مجيء ليكود وبصفة خاصة عقب حرب لبنان، سوف نكتشف مفهومًا جديدًا للسياسة الخارجية. السبب الحقيقي في هذا التغيير هو أن إسرائيل لم تعد تمثل مجتمع الجيتو الذي عرفته العقليّة اليهودية وسيطرت على القيادة اليهودية حتى عام 1967 وهي رغم هزيمة أكتوبر سرعان ما استعادت نفسها عسكرياً، ثم غزت أكبر دول المنطقة دبلوماسياً وهي تهدد وتتصدى في المنطقة، هذا الواقع الجديد كان لا بد وأن يعكس نظرة تتضمن عناصر جديدة للسياسة الخارجية. قد تبدو هذه السياسة غير واضحة وغير مقننة، ولكن متابعة الجزئيات تسمح ببناء عناصرها المختلفة.

أ - لقد توسع مفهوم الأمن القومي، ليصير مرادفاً للسياسة الخارجية، إنه لغة القوى وقد أضحي وأعيا بقوته.

ب - الحائط الذي أقامه «بن جوريون» وأبناؤه ليس مشكلة حدود مغلقة، وإنما هو سيادة قوية تخيف وترهب.

ج - التعامل الحذر لا يمنع من البحث عن عناصر المساندة وتدعيم تلك العناصر بكل ما تملك إسرائيل من مقومات.

د - التورط هو قدرٌ يجب أن تواجهه إسرائيل، ما هي الدولة التي تريد أن تكون ذات فاعلية ولم تتورط كذلك، فإن التورط له حساباته.

هذا هو المفهوم الجديد الذي برز مع ليكود، ثم تأكد مع حرب لبنان، ولا يزال سائداً رغم مشاركة حزب العمل في السلطة.

يعني من هذا المفهوم النتائج المختلفة المرتبطة بمفهوم الأمن القومي، وقد برزت هذه النتائج بصفة خاصة في أبعاد خمسة:

البعد الأول: المتعلق بما سُمي في وقته «البرنامج الكبير» والذي يدور حول حرب لبنان وجوهره البدء بإنشاء إسرائيل الكبرى (1).

البعد الثاني: التمييز بين إنشاء إسرائيل وعملية الهيمنة على منطقة الشرق الأوسط والتحكم في مستقبلها من جانب الإدارة الحاكمة الجديدة الإسرائيلية وأبعاد تلك الهيمنة.

البعد الثالث: ويرتبط بالتطور العضوي، الذي أصاب العلاقات الأمريكية الإسرائيلية.

البعد الرابع: ويقودنا إلى حقيقة التطور في علاقات التعامل مع دول الجوار الجغرافي

(1) إسرائيل الكبرى: يعني من النيل إلى الفرات، حسب توراتهم المحرقة وما جاء فيها في سفر التكوين 18/15 «وعقد الرب مع إبرام عهداً لنسلك أعطى الأرض من نهر مصر إلى نهر الفرات»، ونسى اليهود أن إبراهيم عليه السلام كان رسولاً مسلماً، والذي يرثه هم المسلمون، وليس اليهود؛ لأنهم كفروا بنبي الله إبراهيم عليه السلام.

للمنطقة.

البعد الخامس: وينقلنا إلى دائرة أكثر اتساعاً في التعامل الدولي، حيث يبرز ما يسمى بمنطق المساندة الدولية، وارتباط ذلك بالتعامل الإقليمي.

تتابع هذه النواحي بشيء من الإيجاز:

البرنامج الكبير وحرب لبنان:

فكرة إنشاء إسرائيل الكبرى لم تَحْتَفَ في أي لحظة من مخيلة القيادة الإسرائيلية، ومنذ وجود الدولة وقيل وجود الدولة، رغم ذلك فحتى حرب 1967 كانت القيادة واعية بقدراتها، ولذلك فهي لم تحاول في أي مرحلة أن تحيل ذلك الأمل إلى خطة مركبة عندما طرح موضوع التعامل مع لبنان، بقصد التدخل في بعض أجزائه الجنوبية أو خلق تحالف مع القيادات المارونية في مجلس الوزراء الإسرائيلي، «وبن جوريون» لا يزال في أوج إيناعه انتهى النقاش بإرجاء الموضوع.

السياسة الإسرائيلية حتى عام 1967 كانت تتميز بثلاثة خصائص أساسية:

أولاً: الواقعية والتي معناها التعامل مع المتغيرات، تبعاً للقدرات التي تملكها الدولة.

ثانياً: التدرج في التعامل، بمعنى البدء بالأهم فالأقل أهمية.

ثالثاً: عدم الإعلان عن الأهداف النهائية بمعنى إحاطة الأهداف الحقيقية من الحركة بكثير من التجهيل والسرية.

هذه الخصائص الثلاث، ورثتها الدبلوماسية الإسرائيلية من تقاليد الدبلوماسية الصهيونية، وبرع في تطبيقها «بن جوريون» وأعوانه، الهدف الأساسي الذي كانت تعمل جاهدة في سبيل تحقيقه هو انتزاع الشرعية الإقليمية لإسرائيل. وقف عائقاً أمام ذلك من جانب وجود جمال عبد الناصر بهالته الكاريزماتية، ومن جانب آخر قوة الرأي العام العربي المتضامن مع مصر، رغم الخلافات بين الحكام. ومن جانب ثالث العزلة الدولية لإسرائيل، ولكن في عام 1967 تحققت أول خطوة في سبيل إنشاء «إسرائيل الكبرى» دون أن تقصد القيادة الإسرائيلية في إسرائيل، في حرب 1967 كانت تريد تحقيق شرعيتها الإقليمية من جانب، ولكن من خلال قلب التوازن الدولي في المنطقة الذي حدث أنها حققت نصراً تميز بخصائص ثلاث لم تكن أي قوة تتوقعه:

أولاً: نصر سريع؛ حيث حسمت المعركة في الساعات الأولى من بدنها، أي في صباح يوم الإثنين الذي بدأت فيه المعركة وفي الجبهات الثلاث.

ثانياً: انهيار سريع؛ ومفاجيء في جميع الجبهات في مصر، كان الجيش الذي أحاطته

هالة الدعاية يجرى حافى القدمين. فى سوريا استطاعت الدبابات الإسرائيلية أن تقضى على أى إرادة مقاتلة. المنطقة الوحيدة التى وجدت فيها مقاومة حقيقية، وهى شرق الأردن، لم تستطع أن تستمر فى مقاومة الفيضان لأكثر من عدة ساعات.

ثالثاً: عدم قدرة القيادة الإسرائيلية على استيعاب النصر والاستمرار فى قوة الاندفاع، إنها لم تصدق نفسها كانت قادرة على أن تدخل القاهرة ودمشق وعمان فى آن واحد، تحيل هذه العواصم الثلاث إلى رهينة فى يدها، لم تعرف كيف تستغل نصرها كما لم تعرف القيادات العربية كيف تقف على أقدامها.

ولكن النتيجة غير المقصودة، والتى كانت تراود أحلام جميع القيادات الصهيونية هو التوسع والبدء الجدى فى سبيل إنشاء إسرائيل الكبرى، وقد تحقق ذلك فى أبعاد واضحة فى منطقة الجولان، وبصفة خاصة الضفة والقطاع التى اعتبرت دائماً أجزاء من دولة إسرائيل التوراتية، ولكن سيناء التى حولها يدور نقاش عنيف، فإنها تصير ورقة للمقايضة كما أثبتت عقب ذلك الأحداث حيث من خلالها تم تطويع الإرادة المصرية.

ومع مجيء منحام بيجن إلى السلطة تغير هذا الإطار للتعامل:

أولاً: فالجيش الإسرائيلى أضحى أداة من أدوات تنفيذ السياسة الخارجية، فيما هو أبعد من حماية الأمن القومى الإقليمى، حيث تصير القوة العسكرية أداة لخلق الظروف السياسية الملائمة لاختراق الإطار الدولى.

ثانياً: ولم يعد مقبولاً أن يكون جوهر التعامل العسكرى هو فكرة الدفاع، حتى لو كان وقائياً. يجب أن يكون أساسه الهجوم. الهجوم الدائم المستمر دون اعتبار بأى ناحية أخرى ولنتذكر أنه حتى حرب 1967 كانت فى نظر القيادة الإسرائيلية هى حرب دفاعية ولو من خلال الهجوم المسبق أو الضربة المجهضة.

ثالثاً: والإرادة الإسرائيلية يجب أن تعمل بثبات على إنشاء إسرائيل الكبرى. إن إسرائيل التوراتية هى التى يجب أن يتم تحقيقها، لأن هذا هو وحده الذى سوف يسمح للشعب اليهودى بأن يجد نفسه يصلح لأن يؤدى وظيفته المختارة، ووظيفة الشعب اليهودى ليست فقط متجهة إلى الشعب اليهودى، ولكنها تتجه إلى الإنسانية من خلال عنا صر ثلاث: الكتاب المقدس، أو التوراة أولاً، ثم الأرض التى يحتضنها الشعب اليهودى ثانياً، والإرادة السياسية هى إسرائيل الدولة ثالثاً.

لنستطيع أن نفهم هذه النظرة الجديدة، يجب أن نعود إلى الوراء قليلاً، وقبل «جابوتنسكى» لنتوقف أمام الأب الروحى للدولة اليهودية ذات الوظيفة الحضارية وهو «موسيس هيس» فى كتابه الذى ظل مجهولاً أو مُجهلاً، حتى جاء حزب (حيروت) فأخرجه إلى النور بعنوان «روما والقدس».

المبحث الثالث

الأصول الفكرية .. وعملية بناء الدولة اليهودية الكبرى

تحت هذا العنوان كتب حامد ربيع:

«لو حاولنا أن نفهم حقيقة الفكر الصهيوني المتغلغل في القيادات المسؤولة حالياً، «فى تل أبيب» علينا أن نعود أولاً إلى أفكار جابوتنسكى، وقد سبق ولخصناها، ثم ثانياً إلى فلسفة (هس) كما لخصها فى كتابه الذى ظل محدود الأهمية حتى قُدِّر له أن ينتزع من تراث الصهيونية السابق على يد (هرتزل) ونسلط عليه الأضواء، ليصير فى التقاليد الحالية أحد أعمدة العقيدة الصهيونية الجديدة.

(وموسيس هس) ولد فى أوائل القرن التاسع عشر، وكان أحد أصدقاء وتلاميذ (كارل ماركس). بل وصل به الأمر إلى الاقتناع بالماركسية ورفضه الانتماء اليهودى. كلمته التاريخية: «سوف نظل دائماً أجنب بين الشعوب». وفجأة وبعد قصة من المعاناة عاد (موسيس هس) إلى عشيرته نادماً على ما اقترفته يداه. وبدا منذ ذلك الفترة فى بناء نظريته للقومية اليهودية.

من أهم ما كتب بذلك الخصوص، كتابه الذى أخذ صورة عدة خطابات كتبها إلى زوجة أخيه. فى هذا الكتاب والذى لم تكن توجد له حتى ترجمة فرنسية إلى عشرة أعوام مضت وضعت الأصول الحقيقية لما نستطيع أن نسميه الوظيفة العالمية اليهودية.

نستطيع أن نحدد عناصر هذه الدعوة فى ثلاثة:

أولاً: اليهودية ليست مجرد تعاليم وقيم تتجه إلى من آمن بها. إنها قيم تتجه إلى كل إنسان وفى كل مكان، إنها تتضمن نظرة وفلسفة، ترفع من الإنسان وتقدس كقيمة فى ذاته وهى لا توجد إلا فى قدس الأقداس، أى (الدين اليهودى وتعاليمه التوراتية) التى ظلت دائماً صامدة رغم كل ما أحاط بها ويمن آمن بها من عذاب وتضحية.

ثانياً: إن المجتمع اليهودى بوصفه كذلك وهو وحده القادر على ذلك مدعو لأن يؤدى

رسالة القيادة للبشرية. هناك رسالة لا شعورية عُهد بها إلى كل شعب متقدم، وقد تنقلت هذه الرسالة من شعب إلى شعب، الذي وضعت في جسده ما يسمى «الروح الخالدة».

ثالثاً: هذه الوظيفة تقمصت في لحظة معينة في إرادة أئتنا، ومنها انتقلت إلى روما، وهي تسيير دائماً في تقدم ثابت، واليوم أن تحمل هذه الراية القدس⁽¹⁾، التي سوف تصير عاصمة العالم، إنها هي وحدها التي فيها تتجمع كلمة الرب والشعب المختار والأرض التي من رحيقها تتكون القيم اليهودية.

هذه الإرهاصات في حقيقة الأمر ليست جديدة في الفكر الغربي، ولكن بلورتها في هذه الصورة وبنائها في نظرة متكاملة وربط كل ذلك بالشعب اليهودي أولاً، وبمدينة القدس ثانياً، وبوظيفة الدولة الإسرائيلية ثالثاً، لم يتم إلا على يد (موسيس هوس). وقبل أن ينشر هذا الكتاب أقبل عليه المؤرخ اليهودي «جرنز» الذي وجد فيه التأكيد الحقيقي لأبحاثه عن تاريخ الشعب اليهودي، والتطور الخفي للضمير والوعي اليهودي، في توجهه نحو أداء الرسالة العالمية لتلك الحضارة. وما أن اطلع على النسخة الخطية لذلك الكتاب حتى كتب إلى موسيس هس. «لا أستطيع أن أقول لك كيف أن شكل ومضمون هذا الكتاب أحدث في نفسي الكثير من الانطباعات» ودعا للإقامة معه حيث عاش «موسيس هس» في ضيافة المؤرخ العالمي ثلاثة أشهر اکتلمت فيها الصياغة النهائية لهذه الوثيقة.

كتاب «روما والقدس» الذي يعود إلى الحياة اليوم مع القناعة الجديدة التي تسيطر على الطبقة الحاكمة الإسرائيلية، يصير أسما لنظرة جديدة لوظيفة إسرائيل في العالم المعاصر. والواقع أن موضوع وظيفة إسرائيل في العالم المعاصر يرتبط بما يسميه الفقه منذ فترة غير قصيرة بأزمة الصهيونية، محور ذلك، هل أدت الصهيونية وظيفتها ولم يعد لها موضع؟ لقد أرادت الصهيونية أن تُنشئ مكانا يجتمع فيه يهود العالم، ليضعوا حدا لشقائهم على سطح الكرة الأرضية، ولم يستطع اليهودي أن يقضى حياته كأي شخص آخر، الذي حدث وسجله مفكرو إسرائيل بكثير من القلق أمران:

الأول: أن اليهودي أضحي في حالة استقرار في كل أنحاء العالم، إلا في إسرائيل، حيث لا يشهر بأي استقرار.

الثاني: أن اليهود المنتشرين في أنحاء العالم لم تعد تخريهم الهجرة إلى إسرائيل. لقد كان الواحد منهم يترك روسيا إلى النمسا، ومنها يغير توجهه ويدلا من أن يجعل هدفه الوصول إلى تل أبيب، تجده قد وضع كل قدراته في أن يتعد عن تل أبيب.

الثالث: أضف إلى ذلك الهجرة المضادة، وأولئك الذين يتركون الأرض المقدسة إلى أي مكان آخر خارج إسرائيل.

(1) الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية، جارودي.

وصلت هذه التساؤلات إلى قمته عام 1966. حرب 1967 أعادت الأمور إلى نصابها، ولكن فقط لعدة أعوام. حرب 1982 فجّرت مرة أخرى نفس الموضوع. التساؤلات كانت ومنذ عام 1966 مراداً لإثارة موضوع وظيفة إسرائيل في العالم المعاصر. وثار حول ذلك التساؤل حوار بين أعمدة الفكر الصهيوني ودون تعميق. فمن فريق يتحدث عن إسرائيل دولة بحر متوسطية، يحمل لواءه أبا إيبان. ومن فريق يؤكد وظيفة إسرائيل الثقافية ويحاول أن يخلق من إسرائيل صورة لسويسرا المتعددة الجنسيات يقوده الزعيم الصهيوني «جولدمان».

الفريق الثالث والذي بدأ متلصصاً خجولاً، راح يتحدث عن الإمبريالية الجديدة وكان يمثله بصفة خاصة موشى دايان. هذا الفريق هو الذي أُنِعَ وقد وجد في كتابات «جايبوتسكى» من جانب وفي مؤلف «موسيس هس» عن روما والقدس من جانب آخر مصادر تنظيرية. على أن أهم ما دفعه للأمام هو التطور الخطير الذي أصاب العقلية الإسرائيلية من جانب ثان، والإعداد الفكرى لبناء وظيفة دولية لإسرائيل من جانب ثالث:

أ - العقلية الإسرائيلية سيطر عليها التطرف والتعصب الذي لا حدود له في مواجهة العربى، وهو تطور نتج عن تفاعل داخلى فى المجتمع الإسرائيلى، بسيادة الكم الشرقى اليهودى من جانب، والتعاطف بين هذا الكم الشرقى مع التوجه الدينى فى الكم الغربى فضلاً عن خضوع جيل السابرا لنفس هذا التوجه، مع سيادة المفاهيم: التعصب والاستعلاء. ومما لاشك فيه أنه شجع على ذلك بصفة خاصة النجاح الإسرائيلى عقب قصة الثغرة المعروفة والتصددع الذى ميز وسيطر على الجانب العربى.

ب - التوليفة الحاكمة لاتجمعها سوى هذه الخصائص، فاليمين المحافظ الذى يمثله حزب «حيروت» يسعى إلى الأسواق الجديدة، والجيش أو المؤسسة العسكرية تحلم بالانتصارات والفتوحات، والقوى الدينية لاتعيش إلا فى نطاق الأسطورة الدينية والوعد الإلهى. وهكذا المحور الذى يخلق الترابط بين القوى الثلاث المتحكمة فى التوليفة السياسية تؤمن بالتوسع والانتشار.

ج - الإعداد لوظيفة دولية إسرائيلية هو النتيجة الطبيعية للسياسة الأمريكية، وسوف نرى ذلك فى وضوح ودقة فيما بعد.

الذى يعيننا أن نؤكد عليه كنتيجة لذلك يدور حول:

الأول: أن مشروع إسرائيل الكبرى ليس هو التوسع والهيمنة.

ثانياً: أن علاقة إسرائيل بالمنطقة وبجميع دولها، بما فى ذلك مصر، هى علاقة هيمنة وسيادة ولو بطريق غير مباشر.

ثالثاً: أن علاقة إسرائيل بالولايات المتحدة لا يمكن أن تُقبَل بالمعنى المتداول والذي ظل يحكمها حتى حرب لبنان، مبدأ واحد، وهو حاجة تل أبيب إلى واشنطن. كلا إن كُلا منهما في حاجة إلى الآخر، وهي حاجة أبعد من أن تتحدد فقط بمنطقة الشرق الأوسط وإن كانت تنطلق منها.

نتابع هذه العناصر بشيء من التفصيل:

التمييز بين مشروع إنشاء إسرائيل الكبرى

ونظرية المجال الحيوى الإسرائيلى

التمييز بين مشروع إسرائيل الكبرى والمجال الحيوى، هو عنصر أساسى فى الفكر الإسرائيلى السائد، «فإسرائيل الكبرى» تعنى التوسع العضوى للدولة اليهودية، وهو حق المجتمع اليهودى فى ألا يقف عند حدود نهر النيل غرباً، ونهر الفرات شرقاً.. أليس هذا هو الوعد الإلهى؟ وإسرائيل قد سارت بهذا المعنى خطوات محدودة، حكمت عليها الظروف الدولية أن تكون معقدة، وهى لا بد وأن تخطو بهذا الخصوص خطوات أن لها أن تصير عملاقة، فرصتها الحقيقية هى الأعوام القادمة.

مما لا شك فيه أن التعداد الديموجرافى يمنعها من أن تحقق أهدافها بهذا الخصوص كاملة، ولكن أنصار هذه النظرة من غلاة الصهيونية، يؤكدون بأن الوقت يعمل فى صالحهم وأن الكتلة اليهودية الموجودة فى الاتحاد السوفيتى سوف تبدأ إن أجلاً أو عاجلاً فى التوجه نحو إسرائيل وأن تظل أقليتها الأمريكية فى الولايات المتحدة، فإن ذلك إلى أجل معين، وعندما يصير القدس عاصمة الإنسانية، وإسرائيل مقدمة العالم المتحضر سوف تسرع تلك الأقلية نحو الأرض الموعودة.

الأعوام القادمة تقدم مزايا معينة:

أولاً: فهناك تحول فى داخل الاتحاد السوفيتى نحو التعاطف مع إسرائيل، وفتح باب الهجرة لليهود الروس.

ثانياً: وأوروبا الغربية تتجه إلى الوحدة، وهى فى تلك اللحظة سوف تكون فى حاجة إلى إسرائيل، وخصوصاً لو عرفت أن تبرز كقوة مهيمنة على منطقة البحر الأبيض المتوسط الشرقى.

ثالثاً: والأزمة الاقتصادية فى الولايات المتحدة، وصعود الأقليات السوداء بصفة خاصة، إلى القدرة فى داخل المجتمع الأمريكى سوف يجعل من إسرائيل عنصراً جاذباً يستطيع أن يستقطب جزءاً هاماً من الأقلية اليهودية الأمريكية.

من هذا المنطلق بدأت الحركة الإسرائيلىة فى تنفيذ ما أسمته: ((البرنامج الكبير)) الكلمة ذاتها تدعو للتساؤل، فهى كانت تتحدث دائماً عن إسرائيل الكبرى، ولكنها منذ مجيء «مناحم بيجن» إلى الحكم - وبصفة خاصة - عقب تكامل البورتسكيا الصهيونية، لم تعد

تتحدث عن إسرائيل الكبرى وإنما استخدمت كلمة «المشروع الكبير»، وهو أمر يدعو للتساؤل: هل هذا التغيير في الاصطلاح يعنى تطورا في المفهوم، أو أنه مجرد استخدام لاصطلاح جديد؟ الوثائق لا تسعفنا ولكن الأحداث القادمة سوف تحدد حقيقة هذا التطور، الذي يعيننا فقط بهذا الخصوص أن نؤكد عليه يرتبط بثلاثة عناصر في التطور:

العنصر الأول: أنه مع ذلك المشروع الكبير ظهر تحالف جديد بين خمس شخصيات، كونت في فترة معينة رأس الطبقة القيادية: «مناحيم بيجن» ومعه وزير الدفاع «شارون» وإلى جواره وزير الخارجية «شامير» ويكمل هذا الثلاثي كل من رئيس الأركان «إيثان» ثم مدير الموساد «يهوشوا سافوي»، ورغم اختفاء «مناحيم بيجن» عقب ذلك وابتعاد على الأقل شكليا، «شارون» من وزارة الدفاع، إلا أن علينا أن نتذكر أن هؤلاء الخمسة لا يمثلون أنفسهم ولكنهم يمثلون مؤسسات معينة لا تزال تمارس قدرتها في صنع القرار.

العنصر الثاني: أن حرب لبنان أثبتت فساد النظرية التي سادت العقلية الإسرائيلية المتعلقة بالتعامل مع لبنان. فمصور هذه العقلية الجديدة الافتراض - الذي سبق وحللناه - والذي خلاصته أن القوة العسكرية يمكن استخدامها نتيجة الحرب تدعو للتساؤل حول صحة هذه النظرية:

أ - أن أعداء إسرائيل في لبنان ليسوا فقط المقاومة الفلسطينية، وقد ساعد الغزو على خلق قوى معادية جديدة لا تنقل خطورة وهي قوة الشيعة اللبنانية.

ب - كذلك فقد أثبتت حرب لبنان أن استخدام القوة قد يخلق حركة مقاومة قوية جماهيرية لا يمكن الاستهانة بها وأن الأمة المقاتلة قد ولدت أيضا في لبنان.

ج - حرب لبنان أحالت الجيش من قوة عسكرية إلى قوة بوليسية، وقد نال هذا حقيقة من هيبة جيش الدفاع سواء في الخارج أو في علاقة الجندى الإسرائيلي نفسه بالجيش صاحب التقاليد المزعومة.

د - بل وقد فرضت هذه الحرب على القيادة الإسرائيلية خلفا لتقاليدها، أن تحترم الصماية التي تبذلها الأمم المتحدة.

والواقع أن أخطر نتائج حرب لبنان هو فشل حزب ليكود، في أن ينفذ حقيقة ما أسماه «البرنامج الكبير» الذي يعنى البدء ولو خطوة في إنشاء إسرائيل الكبرى، من خلال ابتلاع جزء على الأقل من جنوب لبنان، وخلق دولة موالية تعمل في فلك تلك الإرادة الإسرائيلية في لبنان.

السؤال الذي يجب أن نطرحه: ما هي الخطة الجديدة التي سوف تلجأ إليها إسرائيل في الأعوام القادمة لتحقيق هدفها كاملا؟ هل تعد لأدوات أخرى أو أدوات مكملة؟ التوليفة

الحاكمة لاتزال فى السلطة، وقناعاتها لاتزال مسيطرة، فكيف تعد نفسها للتعامل مع هذا الواقع؟

سؤال يجب أن نطلقه ونحن نعلم مقدما أننا لانعرف بعد حقيقة الإجابة عليه، ولكن عنصراً واضحاً يجب أن نؤكد عليه. التمييز الواضح بين إنشاء إسرائيل الكبرى والهيمنة على المنطقة. إذا كانت إسرائيل الكبرى هى المنطقة التى تنسب إلى الوعد الإلهى، فإن النفوذ الإسرائيلى سوف يمتد إلى ما هو أكثر من ذلك. أنه سوف يتسع شرقاً حتى الباكستان وغرباً حتى المحيط الأطلس، وجنوباً ليصل إلى الحبشة، وشمالاً ليقف عند حدود تركيا. إن هذه ليست فى حاجة إلى الاحتمال والضم: إنها فقط سيطرة⁽¹⁾ حيث سوف تتحول وتجدول إرادة ونفوذ إسرائيل.

العنصر الثالث: إن هذا المشروع الضخم للهيمنة لن يتم دفعة واحدة. فى مرحلة أولى سوف يوجد نوع من التحالف أو تقسيم مناطق النفوذ مع قوى ثلاث تقف على حافة منطقة الشرق الأوسط: إيران وتركيا ثم الحبشة، العلاقة بين إسرائيل وهذه الدول الثلاثة هى علاقة مزدوجة: فى مرحلة أولى تعاون ولكن فى مرحلة ثانية سوف تخضع نفس هذه القوى للسياسة التى أخضعت لها منطقة الشرق الأوسط العربية، وبعبارة أخرى فإنه فى مرحلة أولى سوف يتم التعامل على أساس تقسيم مناطق النفوذ، وفى مرحلة ثانية يتم استئصال نفوذ تلك الدول وإعادتها إلى حجمها الطبيعى، لتصير دولاً تابعة فى العالم المتسع الذى تتوسطه إسرائيل.

أدوات هذه الهيمنة عديدة وسوف نرى تلك الأدوات بتفصيل فيما بعد، ولكن الذى يجب أن نتذكره فى عملية الهيمنة ومراحلها المختلفة ملاحظتين جانبيتين:

الأولى: تشجيع الوحدات الإقليمية العربية، ودفع شمال إفريقيا بطرق معقدة وغير مباشرة للإبتعاد العربى وتقوية علاقاته ولو مؤقتاً مع السوق المشتركة الأوروبية.

الثانى: استغلال مصر كوسيلة للتغلغل فى الشرق العربى، تحت سيطرة وهيمنة تل أبيب، ولو دون وعى من القيادات المصرية كمقدمة بدورها يعقبها إلغاء الوسيط. العلاقات الإسرائيلية الأمريكية والتطور الجديد:

الناحية الجديدة بالاهتمام وهى المتعلقة بالتطور العسوى فى العلاقات بين تل أبيب وواشنطن، تفرض بدورها الكثير من القلق.

مما لاشك فيه أن علاقة الولايات المتحدة بإسرائيل، تعود إلى ما هو قبل إنشاء

(1) راجع فى ذلك كتاب «أزمة شيشان» لواء أ.ح.د. فوزى محمد طایل، مركز الإعلام العربى - القاهرة -

إسرائيل، وهي واضحة ومعبرة على الأقل منذ القرار التاريخي بالتقسيم، رغم ذلك فقد ظلت هذه العلاقة تسودها ثلاثة مبادئ:

الأول: إنه لا يتوجها إلا صك دولي.

الثاني: إن كلا الدولتين لاتفصح أو تعلن عن تلك العلاقات، إسرائيل تخشى التورط والولايات المتحدة تعمل حساباً لأصدقائها العرب.

الثالث: المحور الحقيقي هو التعاطف الأخلاقي والشعور الأمريكي بالتزام معنوي نحو مجتمع ضحى به يفضل النظام النازي.

كذلك يجب أن ندخل في الاعتبار أن القوى المتعاطفة مع القضية العربية لم تكن محدودة؛ بل كانت تمثل شرائح متسعة في المجتمع الأمريكي، بينما القوى المناوئة والمناهضة للصهيونية كانت بدورها تملك ثقلًا معينًا. التطور الذي عرفه الواقع الأمريكي خلال العشرين عاما اللاحقة لإنشاء إسرائيل سجل ظواهر ثلاث:

الظاهرة الأولى: التقلص في الوجود العربي وفي المساندة العربية.

الظاهرة الثانية: التوسع المبالغ فيه في القوى الصهيونية والمساندة للسياسة الإسرائيلية.

الظاهرة الثالثة: الترابط بين المصالح الأمريكية والمصالح الإسرائيلية.

«روزفلت» رغم شعبيته، ورغم قوته، ورغم قناعاته بالصهيونية، لم يجزؤ على أن يتخذ موقفا مؤيدا لإنشاء إسرائيل.

«كيندي» كان مؤمنا بأن مصالح الولايات المتحدة تختلف عن مصالح إسرائيل. ولكن رغم ذلك فإن العالم العربي وقدراته لم تعرف كيف تستغل ذلك الواقع بل اندفعت في مهارات وإخفاقات متتالية لتنتهي في عام 1967، فإذا بتغير جوهرى في هذه العلاقات محوره الحقيقي ما أثبتته إسرائيل من إمكانيات بالنسبة للسياسة الأمريكية، رغم ذلك فإن القيادة الإسرائيلية كانت تخشى دائما رد الفعل السوفيتي، أضف إلى ذلك حقيقة قد لاتبدو واضحة وهي أن القيادة الإسرائيلية:

أولاً: باشتراكيتها المالية وثانياً: بأصولها الحضارية السلافية. كانت أقرب إلى موسكو منها إلى واشنطن.

حزب ليكود يمثل ثلاثة متغيرات أساسية:

المتغير الأول: مفاهيم جابوتنسكى وسيادة المتغيرات الدينية.

المتغير الثاني: الاتجاه المحافظ الجديد وأهمية الطبقة الوسطى الغنية.

المتغير الثالث: سيطرة مفهوم العرض والطلب على سوق التعامل الاقتصادي.

وهكذا برزت واضحة في الإدراك الإسرائيلي صورة جديدة للتعامل مع الولايات المتحدة الأمريكية.

أ - فالولايات المتحدة هي الفاعل الدولي الوحيد والجدير بالثقة، سواء على مستوى التعامل الدولي أو على مستوى التأثير في منطقة الشرق الأوسط.

ب - ولذلك يجب على إسرائيل أن تصوغ سياستها بحيث تخدم الولايات المتحدة في المنطقة وأن توظف جميع إمكانياتها لصالح - فقط - واشنطن.

ج - وذلك يعنى أن العلاقة بين واشنطن وتل أبيب يجب أن تكون علاقة استراتيجية في أبعاد ثلاث:

البعد الأول: من حيث الزمان بحيث إن الولايات المتحدة تستطيع وإلى أمد غير قريب أن تعتمد على مساندة إسرائيل.

البعد الثاني: من حيث النظام الكلى للدفاع على مستوى الكون للمصالح الأمريكية، أن واشنطن وهي تدافع عن الحرية والديموقراطية يجب أن تجد في إسرائيل أداة أساسية لتحقيق تلك الأهداف.

البعد الثالث: من حيث الوظيفة الحضارية، فكما أن واشنطن تحمل راية حضارية معينة فإن إسرائيل بدورها تحمل راية هي قريبة، بل وهي وحدها المتجانسة مع تلك الحضارة التي تؤمن بها واشنطن.

د - كما أن الولايات المتحدة هي المتغير الدولي الوحيد في المنطقة، فكذا يجب أن يُنظر إلى إسرائيل على أنها الصديق الوحيد (*) للولايات المتحدة في المنطقة.

هـ - التعاون مع إسرائيل يجب أن يمتد ليشمل جميع أجزاء منطقة الشرق الأوسط ودون استثناء.

متابعة تطور هذه العلاقات وتوقعاتها بالنسبة للمستقبل ليس هو محور هذه الدراسة وسوف نتعرض له بالتفصيل في موضع آخر. ولكن الأمر الذي لاشك فيه أنه مع بقاء ليكود في السلطة ظلت هذه العلاقات ورغم جميع الصعوبات في تزايد مستمر، لتصير اليوم في أقوى قوة لها من حيث الترابط الاستراتيجي. بل ويستطيع القول بأنه ورغم أن ليكود هو الذى أسس هذه العلاقات العضوية بتنظيم متكامل، فإن اختفاء ليكود من السلطة وهو أمر يجب أن ندخله في الاحتمال، سوف تترتب عليه زيادة في قوة هذه العلاقة العضوية، إن

(*) راجع تصريح إسحق رابين عندما وجه كلامه للرئيس كلينتون يوم أن تولى الرئاسة. وماذا قال كلينتون في حفل تنصيبه، في كتاب نحو نهضة أمة «كيف نفكر استراتيجيا» اللواء أ.ح.د. فوزى محمد طایل - الباب الخامس ص 300 هامش 3 - مركز الإعلام العربى - طبعة عام 1997.

مبالغات ليكود التي تُحرج الإدارة الأمريكية سوف تختفي، ولكن طبيعة العلاقات سوف تزداد قوة وقد وُجِدَتْ لها الإطار التنظيري.

ولعل هذه الناحية لن تكتمل لو لم نلقت النظر إلى خمس ملاحظات، يجب أن تدعونا إلى التفكير والتساؤل:

الملاحظة الأولى: إن إسرائيل تعمل جاهدة على ألا توجد في المنطقة أية قوة أخرى تستطيع أن تقدم خدماتها للسياسة الأمريكية، فموقفها من أزمة قبرص ثم تعاملها مع الحبشة وسياستها إزاء إيران، خصوصا لو ظل النظام الإسلامي في السلطة في طهران ولا يوجد ما يدعو للاقتناع بعكس ذلك، يزيد من اعتماد الولايات المتحدة على إسرائيل. بل إن مصر خضعت في لحظة معينة لنتائج ذلك، مع ما يعنيه من خلق مشاكل وتوترات بين واشنطن والقاهرة.

الملاحظة الثانية: إن نصوص التعاون الاستراتيجي التي تتجدد سنويا ورغم أننا لانعلم عنها شيئا على سبيل الدقة، إلا أنها تتسع لتشمل أيضاً منطقة الخليج.

الملاحظة الثالثة: إن هذا التعاون انتهى أيضا بالتأثير في الإدراك الأمريكي. لقد كانت النظرة الأمريكية أنه من مصلحة واشنطن أن تعيش المنطقة من مرحلة استقرار، اليوم ولتحت التأثير الإسرائيلي فإنها تؤمن بأن التوتر والاضطراب بشرط أن يكون مضبوطا ومتحكما فيه أكثر مدعاة لتوافق مع المصالح الحقيقية الأمريكية.

الملاحظة الرابعة (*): إن الاستراتيجية على المدى البعيد تسيير في تخطيط أسامة المراحل الأربعة التالية: إنشاء إسرائيل الكبرى، الهيمنة على منطقة الشرق الأوسط، توسيع نطاق المجال الحيوي لتتسع في أبعاده الأربعة ليصل إلى باكستان شرقا، تركيا شمالا، والعيشة جنوبا، والمغرب غربا، ثم هي في مرحلة لاحقة سوف تستخدم بصفة خاصة إيران، بل وإلى حد ما معيين بكل من تركيا والعيشة. وفي خلال ذلك تعمل على تدعيم وتثبيتها الدولية بالمنطقة ومن خلال المنطقة.

الملاحظة الخامسة: إن فهم كل هذه النواحي حيث تتفاعل المتغيرات الإقليمية بأكثر من معنى واحد بالدولية وجميعها، تتربط مع الوظيفة الحضارية لدولة إسرائيل في عالم القرن الواحد والعشرين، تتربط بها نواح اقتصادية خطيرة لها أهميتها وتملك دلالتها.

(* كتاب « نحو نهضة أمة كيف نفكر استراتيجياً » لواء أ.ح. د. فوزي محمد طليل. الباب الخامس (آليات وأساليب إقامة النظام العالمي الجديد)؛ من ص 300 وما بعدها. مركز الإعلام العربي - القاهرة طبعة عام 1987.

جميع هذه النواحي تفرض عدة تساؤلات بعضها يرتبط بالنظرة الجديدة للتعامل الدولي الإقليمي، التي تسيطر على الإدراك الإسرائيلي، وبما يستتبعه من البحث عن خلفاء جدد في عملية المساندة الدولية والتحرك الإقليمي. أحد مظاهر ذلك، إمكانية توظيف مصر في التعامل مع منطقة شمال إفريقيا.

على العقل العربي أن يعي هذه الحقائق حتى لا تقع في الخندق الذي يحفره لنا أعداؤنا.